بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه؛ أما بعد،

فهذا بيان مختصر لبعض الأخطاء التي يقع فيها كثير من القرَّاء فضلاً عن عامّة الناس في مخرج حرف الضاد وصفاته، واعتقادهم أن بينه وبين حرف الظاء فرقًا واضحًا جليًّا يلحظه الجميع من غير دراسة وتدقيق في المسألة، ولما كانت اللغة العربية اختصت بهذا الحرف، فلا نعلم وجوده في لغة سواها، كان من الأهمية بمكان أن يتعلم قرّاء القرآن نطقه الصحيح كما **قال ابن الجزري –رحمه الله–:**

وَبَعْدُ إنَّ هَذِهِ مُقَدِّمَه ... فيماَ عَلَى قَارِئِهِ أَنْ يَعْلَمهْ
إذْ وَاجِبٌ عَلَيْهِمُ مُحَتّمُ ... قَبْلَ الشُرُوعِ أَوَّلاً أَنْ يَعْلَمُوا
مَخَارِجَ الْحُرُوفِ وَالصِّفَاتِ ... لِيَلْفِظُوا بِأَفْصَحِ اللُغَاتِ

يحسن –في افتتاح هذا البُحيث– أن نذكرالفرق بينهما وخير ما وجدنا في ذلك ما قاله الإمام الفذُّ أبو عمرو الداني (٤٤٤هـ) رحمه الله: "باب ذكر الفرق بين الضّاد والظّاء في المخرج، وحال كلّ واحد منهما:

اعلم، نفعنا الله وإيّاك، أنّ الضّاد مخرجها من حافة اللّسان، من أقصاها إلى ما يلي الأضراس. فمن النّاس من يخرجها من الجانب الأيمن، وهو الأقلّ. ومن النّاس من يخرجها من الجانب الأيسر، وهو الأكثر. ومخرجها كمخرجها من هذا سواء. ليس يخرج من موضعها غيرها، إلّا أنّ اللّام تخرج من حافة اللّسان، من أدناها إلى ما يلي الثنايا.

والضّاد حرف مستطيل، يبلغ باستطالته إلى مخرج اللّام، ومن أجل ذلك أدغمت اللّام فيها في نحو قوله: وَلَا الضَّالِّينَ، والضَّلالُ، وشبهه. ولا تدغم هي في شيء من الحروف، لانفرادها بمخرجها إلّا في الشّين وحدها. وإنّما جاز إدغامها فيها، لأنّ الشّين فيها تفشّ يقرّبها من مخرج

الضّاد. والضّاد مجهورة، والجهر: الإعلان، لأنّ الاعتماد قوي في موضعه، حتى منع التفشي أن يجري معه، فصارت بذلك رخوة، وهي أيضا مطبقة مستعلية، لأنّ اللّسان ينطبق بها على الحنك، ويعلو إلى جبهته، فهذه حال الضّاد، وأمّا الظّاء فمخرجها ما بين طرف اللّسان وأطراف الثّنايا العليا، خارجا طرفه قليلا. ويخرج معها من ذلك الموضع الذّال والثّاء.

والظّاء مجهورة رخوة مستعلية، فالفرق بينها وبين الضّاد إنّما هو المخرج والاستطالة لا غير، وهي بعد ذلك موافقة لها في الجهر والرّخاوة والإطباق والاستعلاء.

وقد رأيت بعض من يدّعي القراءة والعربية بزعمه، وهو عنهما بمعزل، يقول في كتاب له: إنّ الفرق بينهما إنّما هو أنّ الظّاء مهموسة غير مجهورة ولا مطبقة، وأنّ الضّاد مجهورة مطبقة. قال: ولولا الجهر والإطباق اللّذان فيها لكانت ظاء.

وهذا فرط غباء من قائله، يخرجه عن جملة منتحلي القراءة والعربية من المبتدئين الأصاغر، فضلا عن المقرئين والمعربين الأكابر.

وإنّما ذكرت هذا تحذيرا من أغلوطته، وتنبيها على غبايته، وبالله تعالى التوفيق.[1]

---

(1)"الفرق بين الضاد والظاء فى كتاب الله عز وجل وفى المشهور من الكلام" للإمام عثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر أبو عمرو الداني (المتوفى: ٤٤٤هـ) (ص٣٢-٣٤)، هذا في زمان هذا الإمام الجهبذ، وللأسف لا نزال نسمع كلامًا نحوه ممن يدرس في بعض الجامعات المشهورة، وبعضها قد لا يصرح بذلك لكنه يقوله بلسان حاله ويستشفه من أدائه.
قال الإمام الذهبي كما في "السير" (٧٧/١٨): "أَبُو عَمْرٍو الدَّانِي عُثْمَانُ بنُ سَعِيْدِ بنِ عُثْمَانَ، الإِمَامُ، الحَافِظُ، المُجَوِّدُ، المُقْرِئُ، الحَاذِقُ، عَالِمُ الأَنْدَلُسِ، أَبُو عَمْرٍو عُثْمَانُ بنُ سَعِيْدِ بنِ عُثْمَانَ بنِ سَعِيْدِ بنِ عُمَرَ الأُمَوِيُّ مَوْلاَهُمُ، الأَنْدَلُسِيُّ، القُرْطُبِيُّ، ثُمَّ الدَّانِي، وَيُعْرَف قَدِيْماً: بِابْنِ الصَّيْرَفِيِّ... إِلَى أَبِي عَمْرٍو المُنْتَهَى فِي تَحرِيْر عِلمِ القِرَاءات، وَعلمِ المَصَاحِف، مَعَ البَرَاعَة فِي علم الحَدِيْث وَالتَّفْسِيْر وَالنَّحْو، وَغَيْر ذَلِكَ. وَ (إِيجَاز البيَان) فِي قِرَاءة وَرش، وَ (التَّلخيص) فِي قِرَاءة وَرش أَيْضاً، وَ (الْمقنع) فِي الرَّسم، وَكِتَاب (المُحتوَى فِي القِرَاءات الشَّواذ) فَأَدخل فِيْهَا قِرَاءة يَعْقُوْب وَأَبِي جَعْفَر، وَكِتَاب (طَبَقَات القُرَّاءِ) فِي مُجَلَّدَات، وَ (الأَرْجُوزَة فِي أُصُوْل الدِّيَانَة) ، وَكِتَاب (الْوَقْف وَالابتدَاء) ، وَكِتَاب (الْعدَد) ، وَكِتَاب (التَّمهيد فِي حرف نَافِع) مجلّدَان، وَكِتَاب (اللاَمَات وَالرَّاءات) لِوَرْشٍ، وَكِتَاب (الفِتَن الكَائِنَة) مُجَلَّد يَدلُّ عَلَى تَبَحُّرِهِ فِي الحَدِيْثِ، وَكِتَاب (الْهَمْزَتَيْن) مُجَلَّد، وَكِتَاب (اليَاءات) مُجَلَّد، وَكِتَاب (الإِمَالَة) لابْنِ العَلاَء مُجَلَّد.
وَلَهُ تَوَالِيف كَثِيْرَة صِغَار فِي جُزْء وَجزئِين .
وَقَدْ كَانَ بَيْنَ أَبِي عَمْرٍو، وَبَيْنَ أَبِي مُحَمَّدٍ بنِ حَزْم وَحْشَةٌ وَمُنَافرَة شَدِيْدَة، أَفْضَتْ بِهِمَا إِلَى التَّهَاجِي، وَهَذَا مَذْمُومٌ مِنَ الأَقرَان، مَوْفُورُ الوجُوْد.

قال ابْن الصَّابُونِي الصَّدَفِي في مقدمة كتابه "معرفَة الْفرق بَين الضَّاد والظاء":[٢]

"أما بعد: فإنك سألتني أن أشرح لكَ طرفاً من حروف الظّاءِ والضّادِ، لتستدلَّ به على بعض ما التبسَ من على بعض المعلمين بالفرق بينهما، من إبانة الظّاء بإظهار طرف اللسان في النطق بها، ورفعك رأسها عند كتابها، وضمّ الأسنان على الضاد، وميلك اللسان إلى الأضراس من ناحية الشمال، فتفرق بينهما في خطّهما، فكتبتُ لك من ذلك أمثلة لتحتذي بها، وأصولاً لتقتدي بها، بإتباع من كتاب الله تعالى، وشواهد من الشعر...".

ثم ذكر أمثلة من الفروق بين الضاد والظاء كما صنع سابقه (أي: الإمام أبو عمرو الداني) في كتابه، وعلى هذا درج غيرهم من أئمة القراءات واللغة في كتب أفردوها لبيان الفروق بينهما، وقد أشارت إلى طرف من هذه الكتب في ختام ما سطرته هنا.

وتنبه أيها القارئ –هديت إلى الصواب– إلى قول الصابوني المنقول آنفًا: "...لتستدلَّ به على بعض ما التبسَ من على بعض المعلمين بالفرق بينهما..."، ليتجلى لك أن هذه المسألة والبحث فيها ليس وليد هذا الزمان –كما أشرت– وليس من فضول العلم والعبث به وفيه.

قال ابن الجزري –رحمه الله–:

وَالضَّادَ بِاسْتِطَالَةٍ وَمَخْرَجِ ... مَيِّزْ مِنَ الظَّاءِ وَكُلُّهَا تَجِي

قال على القاري –رحمه الله– في "المنح الفكرية (ص١٤٩):

نَسْأَل الله الصَّفْحَ، **وَأَبُو عَمْرٍو أَقوم قِيلاً، وَأَتبعُ لِلسُّنَّة**، وَلَكِنَّ أَبَا مُحَمَّدٍ أَوسعُ دَائِرَةً فِي العُلُوْم، بلغتْ تَوَالِيف أَبِي عَمْرٍو مائَةً وَعِشْرِيْنَ كِتَاباً".

(٢) "معرفَة الْفرق بَين الضَّاد والظاء" (ص١٣) لِابْنِ الصَّابُونِي الصَّدَفِي الإشبيلي أَبِي بكر مُحَمَّد بن أَحْمد(٦٣٤ هـ).

"...وليس في الحروف ما يعسر على اللسان مثله، وألسنة الناس فيه مختلفة: فمنهم من يخرجه ظاءً، ومنهم من يخرجه دالاً مهملة أو معجمة، ومنهم من يخرجه طاءً مهملة كالمصريين، ومنهم من يشمُّه ذالاً، ومنهم من يشير بها بالظاء المعجمة، لكن لما كان تمييزه عن الظاء مشكلاً بالنسبة إلى غيره أمر الناظم بتمييزه عنه نطقًا".

ومما يؤكد هذا المعنى حكم بعض العلماء بعدم بطلان الصلاة بإبدال أحدهما بالآخر في صورة الفاتحة، وهذا الذي رجّحه شيخ الإسلام ابن تيمية والحافظ ابن كثير وغيرهما كما **قال شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– كما جاء في مجموع الفتاوى (٣٥٠/٢٣)**:

"وَأَمَّا مَنْ لَا يُقِيمُ قِرَاءَةَ الْفَاتِحَةِ فَلَا يُصَلِّي خَلْفَهُ إلَّا مَنْ هُوَ مِثْلُهُ فَلَا يُصَلِّي خَلْفَ الْأَلْثَغِ الَّذِي يُبَدِّلُ حَرْفًا بِحَرْفِ إلَّا حَرْفَ الضَّادِ إذَا أَخْرَجَهُ مِنْ طَرَفِ الْفَمِ كَمَا هُوَ عَادَةُ كَثِيرٍ مِنْ النَّاسِ فَهَذَا فِيهِ وَجْهَانِ : مِنْهُمْ مَنْ قَالَ : لَا يُصَلَّى خَلْفَهُ وَلَا تَصِحُّ صَلَاتُهُ فِي نَفْسِهِ لِأَنَّهُ أَبْدَلَ حَرْفًا بِحَرْفِ ؛ لِأَنَّ مَخْرَجَ الضَّادِ الشِّدْقُ وَمَخْرَجَ الظَّاءِ طَرَفُ الْأَسْنَانِ . فَإِذَا قَالَ (وَلَا الظَّالِّينَ) كَانَ مَعْنَاهُ ظَلَّ يَفْعَلُ كَذَا . وَالْوَجْهُ الثَّانِي : تَصِحُّ وَهَذَا أَقْرَبُ لِأَنَّ الْحَرْفَيْنِ فِي السَّمْعِ شَيْءٌ وَاحِدٌ وَحِسُّ أَحَدِهِمَا مِنْ جِنْسِ حِسِّ الْآخَرِ لِتَشَابُهِ الْمَخْرَجَيْنِ . وَالْقَارِئُ إنَّمَا يَقْصِدُ الضَّلَالَ الْمُخَالِفَ لِلْهُدَى وَهُوَ الَّذِي يَفْهَمُهُ الْمُسْتَمِعُ فَأَمَّا الْمَعْنَى الْمَأْخُوذُ مِنْ ظَلَّ فَلَا يَخْطِرُ بِبَالِ أَحَدٍ وَهَذَا بِخِلَافِ الْحَرْفَيْنِ الْمُخْتَلِفَيْنِ صَوْتًا وَمَخْرَجًا وَسَمْعًا كَإِبْدَالِ الرَّاءِ بِالْغَيْنِ فَإِنَّ هَذَا لَا يَحْصُلُ بِهِ مَقْصُودُ الْقِرَاءَةِ".

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ: "وَالصَّحِيحُ مِنْ مَذَاهِبِ الْعُلَمَاءِ أَنَّهُ يُغْتَفَرُ الْإِخْلَالُ بِتَحْرِيرِ مَا بَيْنَ الضَّادِ وَالظَّاءِ لِقُرْبِ مَخْرَجَيْهِمَا، وَذَلِكَ أَنَّ الضَّادَ مَخْرَجُهَا مَنْ أَوَّلِ حَافَّةِ اللِّسَانِ وَمَا يَلِيهَا مِنَ الْأَضْرَاسِ، وَمَخْرَجُ الظَّاءِ مِنْ طَرَفِ اللِّسَانِ وَأَطْرَافِ الثَّنَايَا الْعُلْيَا، وَلِأَنَّ كُلًّا مِنَ الْحَرْفَيْنِ مِنَ الْحُرُوفِ الْمَجْهُورَةِ وَمِنَ الْحُرُوفِ الرِّخْوَةِ وَمِنَ الْحُرُوفِ الْمُطْبَقَةِ، فَلِهَذَا كُلِّهِ اغْتُفِرَ اسْتِعْمَالُ أَحَدِهِمَا مَكَانَ الْآخَرِ لِمَنْ لَا يُمَيِّزُ ذَلِكَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَأَمَّا الْحَدِيثُ: " أَنَا أَفْصَحُ مَنْ نَطَقَ بِالضَّادِ " فَلَا أَصْلَ لَهُ". اهـــ

وقال الشيخ الألباني –رحمه الله– (سلسلة الهدى والنور/ شريط ٣٧٣):

"...الضاد الشامية والضاد المصرية تختلف تماما عن الضاد العراقية والضاد النجدية ، والنطق بهذا الحرف أقرب إلى الصواب على الوجه الذي يتكلم بها ويقرأ بها أهل نجد وأهل العراق من النطق الذي ينطقه المصريون والشاميون".

ثم قال: "... أما الضاد الشامية والمصرية فهو بلصق رأس اللسان بسقف الحلق ، هذا خطأ، ولما كانت المشابهة موجودة بين الظاء الرخوة والضاد الرخوة بحيث يختلط أحيانا النطق بالضاد فتنطق كالظاء ، أمر هذا القارئ الجيد بتميز الضاد عن الظاء لأنه فيه مشابهة ؛ أما ما فيه مشابهة بين الضاد والطاء...

ثم قال: "...النطق الصحيح بالضاد حافت اللسان بالأضراس وليس رأس اللسان بسقف الحلق كما ينطق به الشاميون وغيرهم حينما نسمع الضاد من العراقيين القراء منهم ومن النجديين حتى في كلامهم هي غير الضاد المصرية والشامية تماما وهي الضاد الصحيحة ويؤيد ذلك من حيث الأسلوب العربي أن بعض القصائد تكون قافيتها ظاء ولما كانت الضاد شبيها بالظاء لا يستنكف الشاعر أن يجعل القافية تارة بالضاد وتارة بالظاء ؛ وأجد الآن في بعض الرسائل تأتيني من نجد يكتبون الظاء مقام الضاد لأنها مشابهة تماما في النطق ، وهذا صحيح ؛ لذلك هذا يؤكد لنا أنه لابد من تلقي علم القراءة والتجويد من أهل العلم ؛ فالمصريون مثلا والدمشقيون يخطئون في النطق بالضاد ، فمثلا الفاتحة التي تقرأ في كل ركعة من الصلوات الخمس عندنا في سوريا وفي غيرها يقولون ((ولا الضالين)) هذه ضاد ليست إلا دال مفخمة كما يقول علماء التجويد ؛ أما الضاد العربية الصحيحة والتي يدندن حولها ابن الجزري ومن شرح كلامه فهي ضاد رخوة يقترن معها الاستطالة بحيث لو أراد الإنسان أن يمد نفسه بالضاد ((ولا الضالين)) لاستطاع خلافا للضاد الشامية فإنه ينقطع وينصدم ؛ ففرق بين من

يقول ولا الدالين ولا الدالين وبين من يقول ((ولا الضالين)) ، فهي مخرجها من حافة اللسان متلصقة بالأضراس وبين من يضع رأس اللسان في سقف الحلق ، هذا المثال وحده يؤكد أنه لابد من أن يتلقى القراءة هذه من أهل الاختصاص...". اهــ كلامه بتصرف وانظر في هذا الباب "سلسلة الأحاديث الضعيفة" (١٤/١٩٧).

قال الفخر الرازي في تفسيره (١/٣٩)[٣]: "المسألة العاشرة : المختار عندنا أن اشتباه الضاد بالظاء لا يبطل الصلاة ، ويدل على أن المشابهة حاصلة بينهما جداً والتمييز عسر ، فوجب أن يسقط التكليف بالفرق ، بيان المشابهة من وجوه : الأول : أنهما من الحروف المجهورة ، والثاني : أنهما من الحروف الرخوة ، والثالث : أنهما من الحروف المطبقة/ والرابع : أن الظاء وإن كان مخرجه من بين طرف / اللسان وأطراف الثنايا العليا ومخرج الضاد من أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس إلا أنه حصل في الضاد انبساط لأجل رخاوتها وبهذا السبب يقرب مخرجه من مخرج الظاء ، والخامس : أن النطق بحرف الضاد مخصوص بالعرب قال عليه الصلاة والسلام : "أنا أفصح من نطق بالضاد"[٤] فثبت بما ذكرنا أن المشابهة بين الضاد والظاء شديدة وأن التمييز عسر ، وإذا ثبت هذا فنقول : لو كان هذا الفرق معتبراً

([٣]) قال الذهبي في "تاريخ الإسلام" (١٣/١٣٧): "مُحَمَّد بْن عُمَر بْن الحُسَيْن بْن الحَسَن بْن عليّ، العلَّامة فخر الدّين أَبُو عَبْد الله القُرشيّ البكْريّ التَّيْمِيّ الطَّبَرَستانيُّ الأصلِ الرّازيّ ابن خطيب الري، الشافعي المفسر المتكلّم (المتوفى: ٦٠٦ هــ) صاحب التّصانيف". اهــ

كان من كبار المتكلمين، وفي تفسيره هذا وغيره من كتبه طوام عقدية، وقد رجع إلى مذهب أهل السنة في آخر عمره كما ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في غير ما موضع، وذكرت هذا النقل عنه تبعًا للشيخ السلفي عبيدالله الأفغاني الذي نقل هذا الكلام عنه في شرحه على المقدمة الجزرية مستشهداً به.

([٤]) قال الزركشي في "اللآلي المنثورة في الأحاديث المشهورة" (١/١٦٥): " الحديث الأول: أنا أفصح من نطق بالضاد معناه صحيح، قال شيخنا عماد الدين ابن كثير في تفسيره: لا أصل له".

وقال الشوكاني –رحمه الله– في الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة (١/٣٢٧): " لا أصل له ومعناه صحيح".

لوقع السؤال عنه في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلّم وفي أزمنة الصحابة ، لا سيما عند دخول العجم في الإسلام ، فلما لم ينقل وقوع السؤال عن هذه المسألة البتة علمنا أن التمييز بين هذين الحرفين ليس في محل التكليف".

قال أبو محمد مكي بن أبي طالب حمّوش القيسي (ت ٤٣٧هـ)[٥] في كتابه "الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة" (ص١٨٤): "الضاد: تخرج من المخرج الرابع من مخارج الفم، من أول حافة اللسان وما يليه من الأضراس، وهو حرف قوي، لأنه مجهور مطبق من حروف الاستعلاء، وفيه استطالة، وله صفات قد تقدم ذكرها.

والضاد يشبه لفظها بلفظ الظاء، لأنها من حروف الإطباق، ومن الحروف المستعلية ومن الحروف المهجورة، ولولا اختلاف المخرجين وما في الضاد من الاستطالة، لكان لفظهما واحدًا، و لم يختلفا في السمع.

فيجب على القاريء أن يلفظ بالضاد إذا كان بعدها ألف بالتخفيف البيِّن، كما يلفظ بها إذا كان يحكي الحروف، فيقول: "صاد"، "ضاد". ولا بد له من التحفظ بلفظ الضاد حيث وقعت فهو أمر يقصِّر فيه أكثر من رأيت من القرّاء والأئمة، لصعوبته على من لم يدرب فيه.

فلا بد للقاريء المجود أن يلفظ بالضاد مفخمة مستعلية منطبقة مستطيلة، فيظهر صوت خروج الريح عند ضغط حافة اللسان بما يليه من الأضراس عند اللفظ بها، ومتى فرّط في ذلك أتى بلفظ الظاء أو بلفظ الذال، فيكون مبدِّلاً مغيِّرًا.

والضاد أصعب الحروف تكلُّفًا في المخرج وأشدها صعوبة على اللافظ، فمتى لم يتكلف القاريء إخراجها على حقها أتى بغير لفظها، وأخلَّ بقراءته ومن تكلف ذلك وتمادى عليه صار له التجويد بلفظها عادة وطبعًا وسجيةً.

---

(٥) **قال الذهبي في السير (٥٩١/١٧)**: "العَلاَّمَةُ، المُقْرِئُ، أَبُو مُحَمَّدٍ مَكِّيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ حَمُّوش بن مُحَمَّدِ بنِ مُختَارٍ القَيْسِيُّ، القَيْرَوَانِيُّ، ثُمَّ القُرْطُبِيُّ، صَاحِبُ التَّصَانِيْفِ، وَكَانَ مِنْ أَوْعِيَةِ العِلْمِ مَعَ الدِّينِ وَالسَّكِينَةِ وَالفَهْمِ".

ثم قال: "... ولكن يخاف أن يلفظ بالأول مثل ما لفظ بالثاني، لتقارب التشابه والألفاظ في "الضاد" و"الظاء"، فيجب أن يتبين الضاد من الظاء".

قال الشيخ عبيد الله الأفغاني –رحمه الله– مقلِّقًا على كلام المكي: "إذا كان صعبًا التمييز بينهما فهذا الذي نسمع (غير المغضوب عليهم...) فهذا ما هو صعب، كل واحد يعرف الفرق، فمعلوم أن هذا ليس حرف الضاد...". [٦]

وأحب أن أشير في ختام هذا البحيث إلى بعض الكتب الأساسية في هذا الباب يحسن الرجوع إليها للتوسع في الموضوع، ونقلت عن بعضها هاهنا، وقد قام بتحقيق كثير منها الأستاذ المحقق حاتم الضامن، وهي:

- "الفرق بين الضاد والظاء فى كتاب الله عز وجل وفى المشهور من الكلام" للإمام عثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر أبو عمرو الداني (المتوفى: ٤٤٤هـ).
- معرفة الضاد والظاء: للصّقلّيّ.
- المصباح في الفرق بين الضاد والظاء: للحرّاني.
- الاعتماد في نظائر الظاء والضاد: لابن مالك.
- الفرق بين الضاد والظاء: للموصلي.
- كيفية أداء الضاد: لساجقلي زاده.
- الضاد والظاء: لابن سهيل النّحوي.
- الفرق بين الظاء والضاد: للزنجاني.
- معرفة الفرق بين الظاء والضاد: لابن الصّابوني.

هذا والله أعلم

وصلى الله وسلم وبارك على نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(٦) شرح الشيخ –رحمه الله– على المقدمة الجزرية.

وكتب

أبو عبيد عبدالصمد نور

فجر يوم الخميس ٧ المحرم ١٤٣٩هـ

القاهرة ــحرسها الله-